

علم الجمال . السنة الرابعة

د. هديل نزار أبو آذان

المحاضرة الثانية



الجمهورية العربية السورية

جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية وآدابها

الاتجاهات الكبرى في فهم الجمال

نشأت الفلسفة بفروعها المختلفة في سياق التطور التاريخي للبشرية لتجيب عن الأسئلة الكبرى في حياة الإنسان. فإذا كانت الأسئلة هي المفاتيح التي فتحت أبواب العلوم أمام الإنسان، فإن المفتاح الذي فتح باب علم الجمال . بوصفه الفرع الأخير من فروع الفلسفة . هو السؤال الجوهرية: ما الجمال؟ أو ما الجميل؟

ولقد حاول الفلاسفة والمفكرون الإجابة عن هذا السؤال خلال تاريخ التفكير الجمالي فانسربت محاولاتهم في اتجاهات ثلاثة متميزة؛ الاتجاه الموضوعي، والاتجاه الذاتي، والاتجاه الجدلي القيمي الذي يسعى إلى التوفيق بين الاتجاهين السابقين من خلال نظرة شمولية إلى جوانب التجربة الجمالية.

فإذا أطلقت حكماً جمالياً على ورده ما ووصفتها بأنها جميلة، فهل هذا الجمال كامن فيها؛ في انسجام شكلها ورونق لونها؟ أو هو كامن في ذاتي التي حكمت بجمالها؟ بمعنى آخر أيكون الموضوع الجميل جميلاً بمعزل عن الذات التي تتذوقه، أم أنّ الذات هي التي تضيفي الجمال على الموضوعات من حولها؟ هذا ما حاول الفلاسفة الإجابة عنه فتعددت اتجاهاتهم.

أولاً : الاتجاه الموضوعي:

نشأ وازدهر في أفياء الفن الإغريقي الذي اتسم بالتزامه أساساً وقوانين عامة في التناسق والانسجام. ويعدّ (فيثاغورث) أول من أرجع الجمال إلى نسبٍ عدديةٍ دقيقة؛ إذ كان يرى أنّ الجمال هو ائتلاف الأضداد على أساس النسب العددية، وفهم الجمال إنما هو فهم العلاقة الكمية (المقاييس الكمية) بين أجزاء الموضوع الجميل. وقد عمل مع من تبعه على إبراز الوشائج العميقة التي تربط علم الجمال والرياضيات. الأمر الذي مهّد في وقتٍ لاحقٍ إلى ظهور المذهب الرياضي التجريبي الذي يركز في جوهره على ما يسمى "العدد الذهبي" أو "المقطع الذهبي"، الذي يرجع كل النسب العددية في الأشياء والظواهر الجميلة في الكون والإنسان وحتى في الفن إلى عددٍ محدّدٍ يساوي (١,٦١٨٠٣)

وبعد "فيثاغورث" جاء "هيراقليطس" (٤٧٠ ق. م) ليؤكد أنّ الجمال صفة للموضوعات، وأنّ التناسق هو أساس الجمال.

ولعلّ أهمّ ما جاء به "هيراقليطس" هو تأكيده نسبية الجمال، وإرجاعه هذه النسبية إلى أسس واقعية موضوعية، فهي عنده ليست تابعة لتغير الذات المدركة للجمال، ولكنها ناجمة عن اختلاف أنواع الطبيعة؛ فأجمل قرد أقبح من أقبح إنسان، كما أنّ أجمل إنسانٍ قبيح إذا ما قورن بالآلهة.

وتابع "ديموقريطس" (٣٧٠ ق. م) "هيراقليطس" فيما ذهب إليه من إعلاء شأن التناسق؛ ولكنّه جعل الاعتدال أهم خاصة للجميل وليس التناسق.

واتسم موقف "أرسطو" (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م) بأنّه موقفٌ موضوعيٌ واقعي، وقد استخلص الباحثون بعض آرائه النظرية في الجمال من كتابه "فن الشعر" الذي يذهب فيه إلى أنّ الجمال موضوعي يتمثل في ما يتصف به الشيء من ترتيب وتناسب ووضوح وغائية، وفي ما

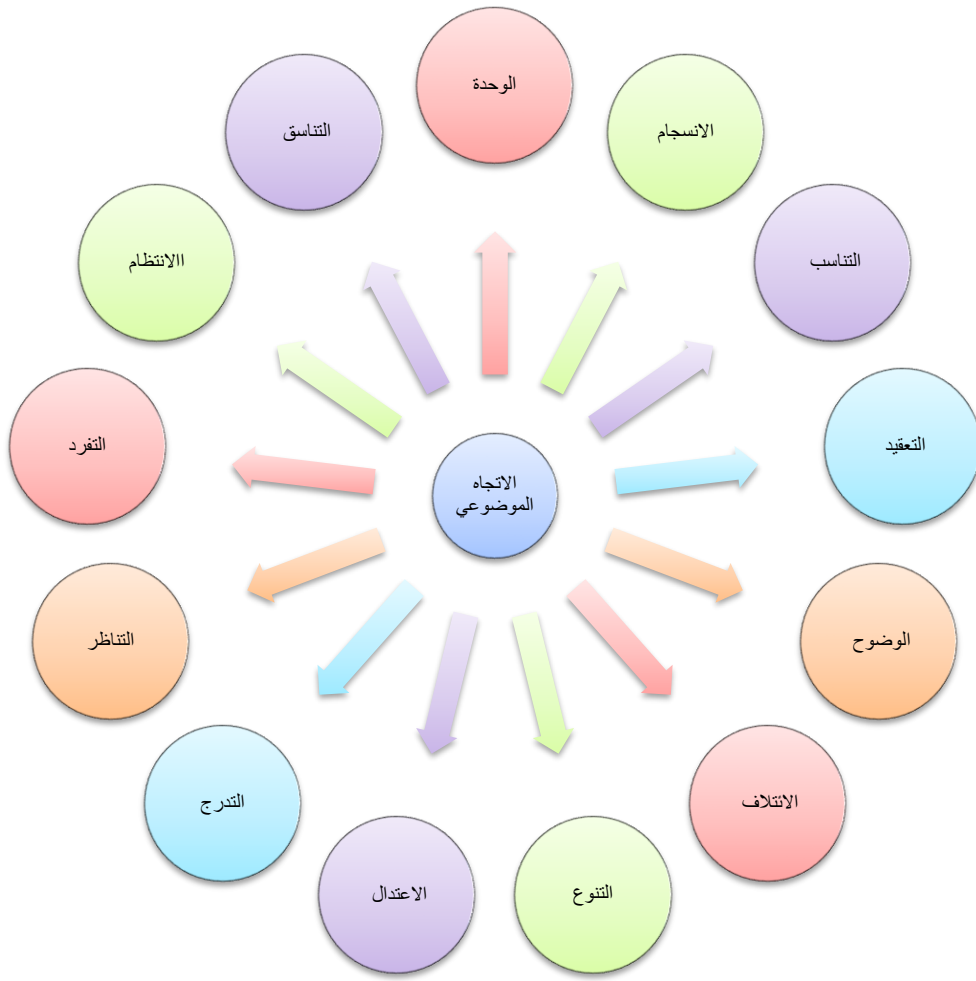
يتضمنه المتعدد أو المتنوع من انسجام وتناظر ونظام ووحدة. وقد أولى التناظر والاعتدال أهمية خاصة في تحديد القيمة الجمالية.

ومن اللافت هنا أن ما نلاحظه عند الفلاسفة اليونانيين من احتفاءً بالقوانين الكيفية الموضوعية في الشيء الجميل عاد ليظهر بقوة في عصر النهضة، ولاسيما مع ازدهار فن التصوير (الرسم)، وظهور رسامين كبار من أمثال ليوناردو دافنشي، إذ عادت علوم لحساب والهندسة الرياضية والعلوم الرياضية لتؤلف وسيلة لتطبيق مبدأ المحاكاة.

ويتابع "إدموند بوركه" (١٧٢٩ - ١٧٩٧م) في عصر التنوير التأكيد على موضوعية الجمال؛ إذ يرى بأنه ثمة ملامح موضوعية لجمال الأشياء وهي: الضالة، والصغر، والصقل، والتغير المتدرج، والرقّة، والنعومة، وصفاء الألوان.

ويستعير "روزنكرانز" (١٨٥٣ م) عن مصطلح الملامح الموضوعية ببلورة هذه الملامح في قوانين عامة للجمال مثل: التناسق، والانسجام، والتناسب، وقوة التعبير الفردي، ليكون الفن مجال تطبيقها.

وقوة التعبير التي عدّها "روزنكرانز" واحداً من قوانين الجمال أصبحت تمثل الجمال عند "بنديتو كروتشه" (١٨٦٦ - ١٩٥٢ م) الذي أوجد مذهبه الخاص والمتفرد في علم الجمال، وقد عرف فيما بعد بالمذهب الحدسي. والجمال عند كروتشه هو "التعبير الناجح، أو بعبارة أخرى التعبير ولا شيء أكثر؛ لأن التعبير عندما لا يكون ناجحاً فإنه لا يكون تعبير. ويتبع ذلك أن يكون القبيح هو التعبير غير الناجح". وينتهي كروتشه من خلال هذا التعريف إلى أن الجمال توحد، أما القبح فدرجات.



ثانياً: الاتجاه الذاتي:

لم ينشأ الاتجاه الذاتي ويأخذ حيزه في الدراسات الجمالية إلا في القرن الثامن عشر، ولكننا لانعدم وجود إرهاصاتٍ له في العصور السابقة؛ إذ نلمح شيئاً من تجلياته عند "سقراط"، فعلى الرغم من سعيه إلى إثبات وجود مقاييس شاملة للجمال، إلا أنه وُحِد في النهاية بين الجمال والخير والنفع فكلّ شيء ذو فائدة هو جميلٌ لو بدا قبيحاً. والفائدة أمرٌ نسبي يرتبط بشكلٍ مباشر بالذات المتلقية وحاجاتها النفعية.

وفي عصر التنوير جاء "رينه ديكارت" (١٥٩٦ - ١٦٥٠) فأكد الجانب الذاتي للجمال مسوغاً من خلاله النسبية التي يتسم بها الجمال؛ إذ يقول: "حين نسأل ما الجمال؟ فلن نستطيع

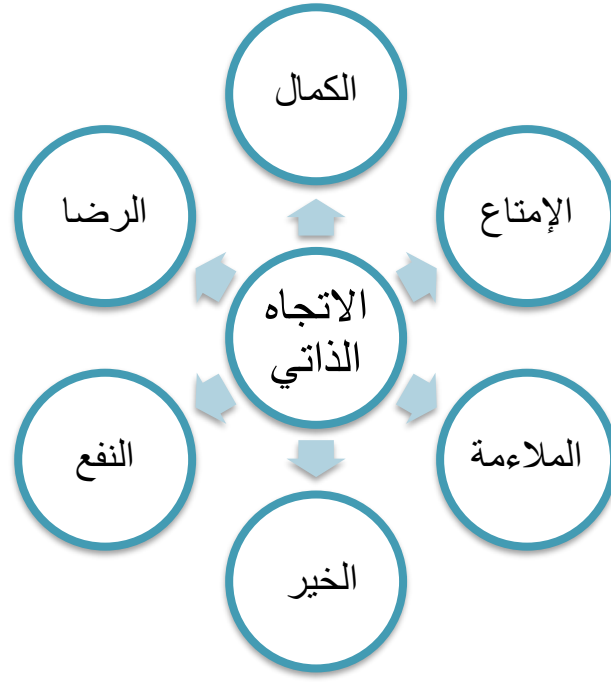
تعريفه تعريفاً مقنعاً، ذلك لأن الجمال يتغير بتغير الأفكار والأفراد والمجتمعات، ولن يفيدنا، في هذا المجال، استنادنا إلى مثال للجمال بالذات، بقدر استفادتنا من تجربة الأذواق، والنتائج الفردية".

وأعلن "ديفيد هيوم" (١٧١١ . ١٧٧٦ م) . الذي يعدّ أهم منظري هذا الاتجاه . بعد كانط . أنّ الجميل ليس صفة الأشياء ذاتها، بل هو حالة في وعي الإنسان، وكل إنسان يلتقط بحواسه نوعاً خاصاً من الجمال . فالجمال كائنٌ في الفكر الذاتي ويتغير بتغيره . وهو، إذاً، حالةٌ شعوريةٌ موجودةٌ فقط في ذهن إنسانٍ يتذوق الجمال تذوقاً خاصاً به .

وقد أعلن "ألكسندر بومغارتن" (١٧١٤ . ١٧٦٢ م) ولادة علم الجمال أو الاستطيقا . وغاية هذا العلم بلوغ الكمال عن طريق المعرفة الحسيّة، والكمال الذي نتوصل إليه عن هذا الطريق هو الجميل .

وتأثر الفيلسوف الألماني الأبرز "كانط" (١٧٢٤ . ١٨٠٤ م) بيومغارتن إلا أنه استطاع أن يتجاوزه بمراحل عظيمة، إذ يعده كثيرون مؤسس علم الجمال الحديث . وبكانط وكتابه " نقد ملكة الحكم " بلغ الاتجاه الذاتي ذروته الذهبية؛ إذ عمد إلى تحليل الجمال ورأى أنّه إمتاعٌ نزيهٌ خالص من المآرب . وقد انتهى إلى التمييز بين نوعين من الجمال؛ الجمال المقيّد الذي يفترض ما ينبغي أن يكون عليه الجميل، ومن أمثلته الجمال الإنساني، والجمال الحرّ الذي لا يفترض مسبقاً ما ينبغي أن يكون عليه الجميل ومن أمثلته الزخارف .

أما ديوي (١٨٥٩ . ١٩٥٢ م)، فقد وسّع مفهوم الجميل حتى يشمل كلّ ما يولد متعةً شخصيةً سواء أكان تأمل لوحه أم ركوب سيارةٍ مريحةٍ .



ثالثاً: الاتجاه التوفيقي الجدليّ (التقيمي):

يسعى هذا الاتجاه إلى التوفيق بين الاتجاهين السابقين في محاولة للكشف عن سر العلاقة الجمالية بغية التوصل إلى تعريف للجمال جامعٍ لأسسه الموضوعية من جهة وأسس الذاتية من جهة أخرى، مبيناً من خلال ذلك طبيعة العلاقة الجدلية التي تربط بين الذات والموضوع.

نجد بذور هذا الاتجاه عند "هومبروس" : الذي يرى أنّ الجميل هو الموضوعي الواقعي المتناسق الذي يرضي الحس والعقل.

ويعدّ "أفلاطون" (٣٤٧ ق. م) أول فيلسوفٍ تعرّض للظاهرة الجمالية فوضع نظريته الجمالية الخاصة التي وسمت بالموضوعية المثالية، وقد بناها على أسس فلسفته المثالية. وتتمثل موضوعيتها من خلال ما يقرره "أفلاطون" من أنّ الجمال موضوعيّ خارجيّ، وليس ذاتياً نخلعه على الأشياء التي نراها جميلة. ولكنه يعلل من ناحية أخرى ميلنا نحو الجميل فيرى أنّ الجمال هو الائتلاف والتناسب والانسجام، والنفس طبقاً لمبدأ الانسجام تميل نحو الجميل لمشاركته في مثال

الجمال ولما فيه من تناسب، وتميل إلى ما يماثلها أي إلى الحق الذي هو أيضاً انسجام. بينما تتمثل مثاليتها من خلال ردها الجمال إلى طبيعة "ميتافيزيقية" تضيف عليه صفة النسبية عند تحليله من خلال الأشياء والظواهر الجميلة؛ حيث يبدو الجمال لأفلاطون صفة خالدة تتجلى في كافة الأشياء الجميلة بنسب متفاوتة القوة والضعف، والاختفاء تدريجياً؛ فالوردة الياقة تتألق جمالاً وتزداد بريقاً بادئ الأمر، وفي إبان تفتحها، ثم لاتلبث نسب الجمال فيها أن تتضاءل شيئاً فشيئاً حتى تضمحل وتزول وتذبل، وما ذلك إلا لأن الجمال فيها عابرٌ يمرّ بها ثم يغادرها إلى غيرها من الأشياء المحسوسة.

كما نجد إرهابات هذا الاتجاه التوفيقي عند فلاسفة القرون الوسطى على الرغم من أنهم يرجعون في فهمهم الجمال إلى عقائد ومفاهيم دينية. ويعدّ "أوغيسطين" (٣٥٤ . ٤٣٠ م) على رأس هؤلاء إذ يعرف الجمال . عموماً . بأنه الوحدة، وجمال الجسم بأنه توافق الأجزاء مع جمال اللون. ولكنه يعود ليحدّد الجميل بأنه كل ما يروق في ذاته، أي كلّ ما يبهجنا إلى الدرجة القصوى.

وأما "توما الإكويني" (١٢٢٥ . ١٢٧٤ م) فمعيار الجمال عنده هو الكمال والتناسب والبهاء والوضوح. ولكن الجميل هو ما يرضي السمع والبصر اللذين يرتبطان بالتفكير، وبهما نتذوق الجمال.

فإذا ما انتقلنا إلى القرن الثامن عشر والتاسع عشر نقف على آراء تتأرجح بين الموضوعية والذاتية محاولةً أن تقف على طبيعة الجميل الترابطية الجدلية. وتعدّ محاولة دوني ديدرو (١٧٠١ . ١٧٨٤م) جديرةً بالاهتمام. إذ ميّز بين ضريين من الجمال: ضرب موضوعي خالص (الجميل الواقعي) وآخر ذاتي . موضوعي (الجميل المدرك)، وعليه لا يكون معنى الجمال في حقيقته، سوى إدراك العلاقات. فالجميل هو كلّ شيء يتضمّن في ذاته ما يوقظ في إدراك المرء فكرة العلاقات،

وما عملية التذوق الجمالي إلا عملية إدراك للعلاقات القائمة في الشيء الجميل. وهذا يقتضي وجود مُدرِكٍ لهذه العلاقات.

لكن في نهاية الأمر لم يستطع ديدرو حل التناقض القائم بين الذاتي والموضوعي واكتشاف سرّ العلاقة الجمالية. والإرهاصة الأولى لهذا الحل كانت على يد "فريدريك شيلر" (١٧٥٩ . ١٨٠٥ م) الذي ذهب إلى أنّ الجميل موضوعٌ لنا وبذات الوقت حالةٌ ذاتيةٌ، إنّه الشكل الذي نحكم عليه وكذلك الحياة التي نشعر بها.

وقد انطلق المفكر الروسي "ن. غ. تشيرنيشفسكي" (١٨٢٨ م) في موازنته بين الجانب الموضوعي والذاتي من مبدأ الحياة وتتلخص وجهة نظره في صيغته المعروفة "الجميل هو الحياة"، و"الرائع موضوع حيّ مفرد". وهو "الكائن الذي نرى فيه الحياة كما يجب أن تكون حسب مفاهيمنا، والرائع هو الشيء الذي يظهر الحياة في ذاته أو الذي يذكرنا بالحياة " فتشيرنيشفسكي يرى الجميل في علاقة جدلية متبادلة بين الذات والموضوع.

وبنى "ولتر ستيس" (١٨٨٦ . ١٩٦٧ م) نظرية خاصة في الاستطيقا تعرّف الجمال بأنّه: امتزاج مضمون عقلي مؤلّف من تصوراتٍ تجريبيةٍ غير إدراكية، مع مجالٍ إدراكي، بطريقة تجعل هذا المضمون العقلي وهذا المجال الإدراكي لا يمكن أن يتميز أحدهما عن الآخر.

على الرغم مما تبديه الاتجاهات الثلاثة السابقة من اختلاف . إذ يتمترس أصحاب كل اتجاهٍ في حصنٍ خاصٍ يغنيهم عن سواهم . إلا أنّها في حقيقة الأمر لا تتناقض ولا سيما إذا قمنا بتحليلها على أنّها وجهات نظرٍ تنطلق في رؤيتها الجمال من زوايا متعددة. فإذا كان الاتجاه الموضوعي يرصد الجميل بوصفه موضوعاً واقعياً محسوساً. وكان الاتجاه الذاتي يتتبع الأثر الذي يتركه إدراك الموضوع الجميل . الواقعي المحسوس . في الذات المتذوقة. فإن الاتجاه الجدلي يرقى إلى رؤية الجمال من الأعلى مبتعداً عن الزوايا . إلى حدٍ ما . حيث يكون اهتمامه منصباً لا على

الموضوع الجميل أو على الذات المتذوقة فحسب، وإنما على العلاقة الجدلية الموضوع - الذات التي
تنتج الجميل المدرك.

انتهت المحاضرة